اللغة العربية ودور الترجمة كجسر عابر للثقافات

دول أفريقيا جنوب الصحراء نموذجا

الطالبة الباحثة شيماء ابليلط
جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس
الكلية المتعددة التخصصات تازة
المغرب

مقدمة

إن اللغة هي الحبل المتين الذي يشد النسيج المجتمعي طبقا للعلاقات بين مختلف هياكله أفرادا وجماعات ومؤسسات. فلا يمكن الحديث عن التوافق بين هذه العناصر دون الحديث عن لغة التواصل والتعبير عن الرغبات والحاجيات والمطالب، إلخ.

واللغة كذلك هي آلية فكرية وثقافية ووسيلة للغزو والهيمنة أيضا، تحدد هوية الفرد والمجتمع: تقدمه ونهضته أو تراجعه وتخلفه. وهي وسيلة أيضا للانفتاح على الآخر وقد تكون كذلك وعاء للتواصل أو حاجزا يحول دون ذلك.

إن دول أفريقيا جنوب الصحراء غنية بمظهر التعدد اللغوي، نظرا للكم الهائل للغات واللهجات وذلك راجع إلى التعدد السلالي بدرجات مختلفة نذكر منها: الجماعات الزنجية والقوقازية وقد يبلغ عدد اللغات في الجنوب ما يناهز 1200 لغة وهذا راجع إلى الظروف الجغرافية ويجدر الحديث عن النقلة التي عرفتها دول الجنوب حيث إن اللغة العربية أضحت لغة رسمية للعديد من الدول الإفريقية، إلا أن دينامية التعريب تواجه تحديات شتى من أهمها : هيمنة آثار المستعمر اقتصاديا وسياسيا وثقافيا على العديد من الدول الإفريقية حيث أصبحت هذه السيطرة ورقة لفرض التغريب ومحاربة التعريب.

وفي المقابل، يمكن الحديث عن الترجمة باعتبارها وسيطاً فعالا للثقافة والمثاقفة ينبغي النهوض به على المستوى الإفريقي من شأنه أن يعيد للعربية هويتها السامية وذلك عن طريق توظيف العربية كوسيلة لربط الاتصال بين أقطاب إفريقيا وجعلها مركز عناية ومحط اهتمام عن طريق النهوض بالمشروع اللغوي والترجمي على حد سواء. لكن تجدر الإشارة إلى خطورة التنميط الثقافي الموحد الذي أضحى يلح على انصهار الهويات في هوية واحدة تلغي مبادئ ومشروعية الاختلاف وذلك راجع لبنود العولمة والتحديث أحادي التصنيف الذي لا يعترف بمعالم الثقافات المحلية المختلفة مما يفضي إلى التقليد والنسخ.

لقد أضحت الترجمة محط تساؤل للغة وللجغرافيا وللهوية.

فما هي الأسس القيمية والثقافية التي تنبني عليها الترجمة باعتبارها لسانا ناطقا بلغتين، بهويتين وبثقافتين؟ هل أضحت الترجمة وسيلة للتقريب أم نهجا للاستلاب الفكري؟ ما الدور الذي تضطلع به اللغة في التلاقح الثقافي لدول أفريقيا جنوب الصحراء؟ هل يمكن اعتبارها آلية للإبداع التنموي أم وسيلة من وسائل التنميط والتقليد؟

سنجيب عن هذه الإشكالية سالفة الذكر عبر ثلاثة محاور أساسية وهي كالآتي:

المحور الأول: اللغة وقضايا الترجمة في دول أفريقيا جنوب الصحراء

المحور الثاني: اللغة العربية والترجمة بين رهان التنمية وإشكالية الهوية: دول أفريقيا جنوب الصحراء نموذجا.

المحور الثالث: اللغة العربية والترجمة ومبدأ التثاقف مآلا وتأويلا.

المحور الأول: اللغة العربية وقضايا الترجمة في دول أفريقيا جنوب الصحراء

إن دول أفريقيا جنوب الصحراء اكتسبت سياسة متعددة اللغات وهذه التعددية اللغوية أضحت مثيرة للجدل بحكم أن اللغة يمكن اعتبارها انتصارا سياسيا للسلطة المهيمنة. ويمكن ترجيح ذلك إلى إدماج "اللغة" في الدستور.

وإذا نظرنا للغة باعتبارها مرجعاً له ما له من تأثير تواصلي بين الأفراد، شأنه شأن الدين، فإن اللغة قد تسهم أيضا في شن أزمات وصراعات تهدد الوجود. وبالتالي يمكن اعتبارها سيفا ذي حدين: إما أن تسهم في العزل والإقصاء العرقي وإما أن تسهم في بث أواصر التشارك والتعاون.

ومن هذا المنطلق، نجد أن اللغة العربية هي لغة مستخدمة لأغراض دينية في دول أفريقيا جنوب الصحراء وتبقى الهوة اللغوية رهينة الأوضاع السياسية والاقتصادية لدول أفريقيا جنوب الصحراء، غالبا ما تعكس العلاقة بين السياسة والإيديولوجيا والاقتصاد حيث نجد الغرب مسيطرا باعتباره قوة هيكلية تؤثر بشكل مباشر على الشق السياسي والاقتصادي ومن تمت تتعارض مصالحها مع الشق الثقافي واللغوي للدول المعنية.

وتبقى اللغة الفرنسية والإنجليزية هي المهيمنة في جميع أقطاب هذه البلدان.

إن الحافز الثقافي يمكن أن يؤثر بشكل إيجابي في إقرار أهمية اللغة العربية باعتبارها وسيلة تروم إلى مواجهة النموذج المعرفي الغربي ليس محاكاة أو لحاقا به وإنما كوسيلة لإقرار الهوية الإفريقية مع الانفتاح على الغرب تلاقحا دون انزلاق أو انغلاق وهذا ما تروم إليه الترجمة واللغة العربية في دول إفريقيا جنوب الصحراء.

إن اللغة العربية يمكن اعتبارها كمرجع ومرجعية لغوية وسياسية وثقافية ويمكن تلخيص ذلك إجمالا في تمثلها كلغة ومتخيل وثقافة وكذلك في طرق توظيفها واستعمالها. وعند استحضار المرجعية تمثل أمامنا إشكالية الجدل بين الذات الفردية والجماعية وبين مقتضيات الالتزام والتحرر.

فاللغة العربية لها تأثيرها على الفرد والجماعة بحكم الارتباط الوثيق بالهوية. وإذا كانت الهوية متجذرة وراسخة في الذات فإن الالتزام بالدفاع عنها سيرجح كفته إلى كل وسائل تطويرها دون الانفلات إلى شق التحرر بمعناه السلبي الرامي إلى الفوضى والعبثية وعدم التوازن مما يؤدي إلى التبعية أو التقليد أو المجاراة.

إن "الترجمة" عبارة عن "تحول" أي: "بيان لغة ما بلغة أخرى واللسان المترجَم به هو لسان آخر وفاعل ذلك يسمى الترجمان" .

وحسب إمبرتو إيكو(Umberto Eco)فإن الترجمة هي:" قول الشيء نفسه تقريبا في لغة أخرى" . ولكن السؤال المطروح: ما هي حدود "التقريب" وما مداها؟ أين يحق لنا تجاوز التقريب دون أن نصبح في مأزق خيانة النص؟ فهل الترجمة تهم فقط النص؟

إذا كانت الترجمة تستدعي الانتقال من لغة إلى أخرى فإنها تستوجب بذلك: " العبور بين ثقافتين أو بين موسوعتين. يأخذ المترجم بعين الاعتبار كذلك كل العناصر الثقافية بالمعنى الواسع للكلمة" .

إن الترجمة آلية فعالة للتقدم الثقافي يجب العمل على تطويرها باعتبارها مصدرا من مصادر التلاقح اللغوي والفكري والثقافي خاصة في دول إفريقيا من أجل نهضة مشتركة ويتأتى ذلك من خلال دعم مشاريع الترجمة والاستفادة من تجارب البلدان وتعزيز الشراكة والتعاون فيما بينها.

ينبغي تسليط الضوء على اللغة العربية والترجمة كآليتين تبقى فعاليتهما رهينتي التنمية المرتبطة أساسا بالهوية في دول إفريقيا جنوب الصحراء.

المحور الثاني: اللغة العربية والترجمة بين رهان التنمية وإشكالية الهوية: دول إفريقيا جنوب الصحراء نموذجا

ترتكز الهوية على ثلاث أسس وهي: "اللغة والثقافة والمكان". إن اللغة تحت وطأة الترجمة تتأرجح بين هويتين، فالترجمة هو فعل كتابة وبالتالي فهي تنضوي أساسا بين "ممارسة لغوية" ذات قطبين: لغة النص الأصلي واللغة المستقبلة. إن الترجمة لم تعد توحي بتأويل النص في لغة أخرى مغايرة عن اللغة الأصلية بينما أضحت " محاولة لمد جسور ثقافية متبادلة وهذه المحاولة تجعلنا نتساءل عن مكمن "الخاص" و"المشترك" بين لغتين وهويتين وثقافتين متباعدة ومختلفة الأصل والرؤى. وبعيدا عن حيز الوفاء والخيانة للنص المترجَم، إن الترجمة في حد ذاتها أداة تعبير وتواصل تجعل من اللغة العربية نموذجا وسيطا يجمع بين: "المشترك والثابت والمتشابه والمتآلف" و"الخاص والمتعدد والمتباين والمتحول" كما وضحه الحسن الهلالي في مقاله: "الترجمة عند القدماء وتطويع العربية": أن الترجمة [عند هذا الفريق] تعني تفسير النص المراد ترجمته وتأويله ونقله وتحويله لينمو ويستأنف حياة جديدة، ف "لا معنى للنقل إن لم يكن انتقالا، ولا للبقاء إن لم يكن تحولا وتجددا، ولا للتجدد إن لم يكن نموا وتكاثرا" .

وإذا نظرنا للغة العربية باعتبارها لساناً مشتركاً بين الناطقين بها فإنها تجسد " متغيرا" يرتكز أساسا على مبدإ التشاركية الافتراضية بين الأدباء. وغير بعيد عن موطن الهوية الإبداعية، ترتبط العربية بالهوية المنحصرة في "الإطار العربي" ذي البعد الاجتماعي القومي، العرقي والجغرافي والسياسي وكذلك البعد الذاتي الذي يحيل على الهوية الفردية لمبدع النص. ومن خلال هذا التصور يتولد سيل عارم يسائل الأنا والنحن، والخاص والعام، والهوية والوطن، والعالمية ويوسع دائرة الهوية الجغرافية لتشمل "الهوية الإنسانية" ذات البعد الثقافي المنفتح على مدى الإبداع والتجديد. ونرى أن الترجمة تضطلع بدور جوهري في توطيد علاقة الأدبي المبدع بالهوية الثقافية الإنسانية بل ويجعلها "هوية الهويات" كما أكد ذلك أدونيس عندما قال عن المتنبي: "حين أرى إلى المتنبي كمجرد كائن فرد، أقول إنه ينتمي إلى جماعة اسمها العرب. وتلك هي هويته القومية السياسية. لكن، حين أرى إليه، كشاعر خلاق، فإنني أقول، على العكس، إن هويته تتجاوز مجرد الانتمائية إلى العرب[...] فهويته كخلاق، إنما هي انتماء إلى الإنسان، بما هو إنسان، وبما هو طاقة إبداعية معرفية. وعلى هذا المستوى الإبداعي – الإنساني، قد يكون المتنبي أقرب إلى رامبو ((Rimbaud، مثلا، أو غوته (Goethe) ، منه إلى حسان بن ثابث، أو زهير بن أبي سلمى" .

إن اللغة العربية باعتبارها مصدرا للإبداع العربي الإفريقي ورمز لإبداع " مزدوج الهوية" المتمثل في استعمالها كحلقة وصل وتواصل واتصال وكوجه بارز في عمل الترجمة، إلا أن إشكالية الهوية المهيمنة في دول أفريقيا جنوب الصحراء تسائل المبدع والثقافي والمترجِم عن موضع اللغة العربية سياسيا وجغرافيا واقتصاديا وثقافيا حيث لا زال هذا الوسط يعترف بسطوة المستعمِر وبتطاحن اللغات المحلية مما يستوجب علينا طرح "البعد المحلي" والإثني على مستوى تطور وانتشار اللغة العربية في هذا الوسط حيث يظل نهج الخصوصية قائم الملامح وهنا يتجلى دور الترجمة واللغة العربية كوجهين للهوية القائمة على "هويات مشتركة" ومصطلح المشاركة في هذا المستوى يكون نتاجا للوعي بالهوية المتنقلة من " حال التباث إلى حال التحول" ولكن هذا التحول يجعلنا أمام رهانين أساسيين: رهان "الإرهاب اللغوي" كما سماه أدونيس ورهان الدعوة إلى "التجاوز".

إن اللغة العربية في إفريقيا جنوب الصحراء هي نتاج لصراع بين " ثقافة السطح وثقافة العمق، ثقافة الاستلاب وثقافة الإبداع، ثقافة المتاجرة وثقافة المغامرة" كما صرح بذلك أدونيس . إن مصير اللغة العربية والترجمة في إفريقيا جنوب الصحراء رهين بجرأة "المواجهة" من أجل التخلي عن الصراعات العرقية وتخطي مفهوم الهوية من الزاوية الضيقة إلى زاوية أوسع من ذلك وأعمق تجمع بين حسن "التقييم" و"البناء" و"التأويل" و"التأسيس" من أجل التصدي إلى جل أوجه "الاتباع" في مجال الإبداع وبث أواصر "التسامح" بعيدا عن "التعصب".

إن رهان الساعة يقوم على عقيدة الإبداع العربي وسن الترجمة كمذهب للثقافة والمثاقفة. إنه رهان يتمرد على المعرفة الضيقة المنحصرة في إدراك يفتقر للوعي الشمولي بمصلحة الفرد والجماعة. غير أن الترجمة تطرح إشكالية الدفاع عن " الهوية الثقافية" من منطلق "الهوية الجغرافية" ونحن بصدد الحديث عن اللغة العربية والترجمة وإشكالية الهوية في دول أفريقيا جنوب الصحراء، استوقفنا لفظ "الصحراء" باعتباره مكانا وقلبا عطلته "الحرب الأهلية حيث أسيلت دماء وتحولت الصحراء إلى مكان مفتوح المدى تعصف بها الرياح وتهوي بها إلى برزخ التناقضات بين الواقع المفقود والغد المأمول. إنها تقف بين سندان الموت ومطرقة الانبعاث في حركة دؤوبة من أجل إعادة البناء أما لفظ " صحاري" فيحيلنا على ارتباط الذات بمعيار الزمن وهي تحيل إلى معنى "الفراغ" و"الملجأ" في نفس الوقت، وهنا تتحول "الصحراء" من "فضاء كائن" إلى "فضاء ممكن" . يتعلق الأمر بمكان ذي رمزية وديناميةتدلان على أفق لا متناهي وآفاق متجددة. ومن أفريقيا جنوب الصحراء باعتبارها فضاءً مرئياً إلى أبعد نقطة في ذات المبدع "المترجِم" أي الفضاء اللامرئي تعرج اللغة العربية لتؤسس بذلك هوية المكان وهوية الذات حيث إن ارتباط المترجِم– المبدع باللغة العربية وبالمكان "الصحراء" لا يعد ارتباطا خارجيا بل داخليا، فالفضاء الجغرافي حين يلتقي بالفضاء الإبداعي داخل الذات المبدعة تتجاوز "جغرافية الخيال" "جغرافية المكان" ويصير "النص المترجَم" وطنا لا حدود له، مفتوحا إلى ما لا نهاية. هنا يمكن أن نتساءل عن آليات الترجمة باعتبارها حقل "تحول وارتحال وانتقال" كما أسماها جابر عصفور على أنها: "ارتحال لساني إلى الآخر، وارتحال لساني له" .

إن هذا السفر والارتحال بين واحات الإبداع على مستوى الترجمة يقتضي حضور "المَلَكَة الإبداعية" وإتقان "الهوية اللسانية" المتجلية في اللغة العربية وكذلك الإلمام باللغة الثانية. إن التنقل بين لغتين يُحتّم على المترجِم التجول في متخيلين وثقافتين. إنها عملية حاضرة بقوة الفعل والممارسة. وخلال هذا السفر، يسلك المترجِم دروبا وعرة تجعله يحذَر الخلط بين الهوية والهاوية: أي الهوية الإبداعية ومطب الوقوع في درك الخيانة والانحراف الكلي عن سكة التأويل حيث لا يمكن المترجِم أن يحرّف المعنى الأصلي للنص تحت ذريعة الإبداع.

إن هوية المترجِم هي هوية متعددة، مستقطبة لهويات مختلفة ومحافظة في آن واحد على هوية الأصل وهوية النص. إن هذا الميثاق بين المترجِم واللغة يجعلنا نتساءل عن ماهية ومآل اللغة العربية أثناء عملية الترجمة.

المحور الثالث: اللغة العربية والترجمة مآلا وتأويلا

إذا كانت الترجمة عمل نقل وانتقال وتنقل بين ثقافتين مختلفتي المعالم بحثا عن هوية مشتركة. فقد ساءل الفعل الترجمي كممارسة ل"الإطار العربي" الذي يتأرجح بين دهاليز العولمة وطقوس الاتباعية الغربية، علما أن العولمة أصبحت تفرض بنودها الماحية للهوية المختلفة، معترفة فقط بنمط ثقافي يسطو بهيمنته على الشعوب النامية إيمانا منه ب "مركزية ثقافية أحادية" تعلن مقتل الثقافة العربية الإسلامية. إن العلاقة التي تربط اللغة العربية والترجمة بدول إفريقيا جنوب الصحراء هي علاقة جدلية ترتكز أساسا على مخلفات "الغرب" وما تطمح إليه الشعوب الإفريقية على المستوى القيمي والثقافي ولكن تبقى الإشكالية قائمة ما دام مشروع اللغة العربية

والترجمة لصيق ببعد المثاقفة وفق معيار العولمة المفضي إلى الاستلاب الثقافي القائم على أطلال الاقتصاد والسياسة وفق ثالوث: الاقتصاد والإعلام والاستهلاك الذي تحركه لوبيات وأقطاب العولمة.

إن التقاطع بين الثقافات أثناء مشروع الترجمة ظاهرة لا محيد عنها لكن ينبغي للدول الإفريقية الناطقة بلسان عربي أن تخرج من سَمّ خياط التبعية للحداثة الغربية وذلك باستيعاب خصوصيتها التاريخية واللسانية وهويتها المحلية التي تقتضي الخروج من دوامة الأخذ والاقتباس وارتشاف جل التجارب الغربية الطاعنة للهوية العربية وذلك بواسطة نهجها سياسة تغريب العرب عن طريق سلب الثقافة العربية كل القوى التي تجعل منها ثقافة استشرافية لواقع في طور نهضة فكرية وإبداعية مستقلة بذاتها.

إن التحديات التي تواجه اللغة العربية والترجمة في إفريقيا جنوب الصحراء هي تحديات مشتركة بين الدول الإفريقية مآلا وتأويلا ويمكن سردها في النقاط الآتية:

ثقافة عربية خارج النسق المحلي في هذه البلدان وانعدام نظام تربوي واضح الاستراتيجيات.

إن تكريس تعليم اللغة العربية لغة ومنهجا ومنهاجا يقضي على ماهية التبعية لثقافة المستعمِر التي راهنت على طمس الهوية العربية في دول إفريقيا جنوب الصحراء ناهيك عن جدلية الإيديولوجيات المتعصبة والمفضية إلى حروب أهلية تزيد الوضع تأزما وتبطئ عجلة التقدم الثقافي العربي في هذه البلدان.

إن الرهان الحالي في بلدان إفريقيا جنوب الصحراء يتجلى في الانطلاق من اللغة العربية والترجمة كوسيلة لسلك دروب التأثير والتأثر بهوية عربية ناطقة بلسان عربي يرتقي بها إلى درجة إبداعية تؤمن بفكر تركيبي بنّاء يتخطى عتبة التقليد والنسخ ويمكّن المترجِم العربي المبدع من تبني فكر حداثي ناجم عن إبداع عربي إسلامي مستقل لا يقبل الوصاية عليه. إن ممارسة الترجمة تقود المترجِم العربي نحو المعرفة اللغوية الإبداعية الرامية لتحرير فكره من تبعات العجز على مستوى الفعل الترجمي العربي الذي غالبا ما يميل إلى نوستالجيا الترجمة في العصر العباسي أو إلى الركون في درك التقليد الغربي الذي يكرس فرضية التبعية الفكرية والإيديولوجية التي تجسد واقعا ضبابيا مشوه الملامح لفكر عربي يجعل من هويته هوية مائلة إلى تقزيم الإبداع وتقتل الحياة في جسد الترجمة الإبداعية الاستكشافية. إن الترجمة حسب إدمون كاري (Idmond Cary) هي: " عملية أدبية فنية تسعى إلى إيجاد تكافؤات بين نصين بلغتين مختلفتين. وهذه التكافؤات مرتبطة دوما وبالضرورة بطبيعة النصين والقارئ أو الفئة الموجه إليها النص وبالصلات الموجودة بين الشعبين وبيئتهما الأخلاقية والعقلية والعاطفية، مرتبطة بكل الطوارئ والأحداث الخاصة بزمان ومكان اللغة المنقول منها واللغة المنقول إليها".

إن واقع الترجمة واللغة العربية لن يرقى إلى درجة التحديث العربي المطلوب إن لم يتحرر من دهاليز الاستلاب الفكري الخاضع للاتباع عوضا عن الإبداع.

خاتمة

لقد تبين لنا من خلال معالجة هاته الإشكالية المرتبطة باللغة العربية والمشروع الترجمي خاصة في دول إفريقيا جنوب الصحراء أننا أمام تحديات تسائل اللغة والثقافة والهوية داخل هذه البلدان. يبقى المشروع الترجمي وسيلة فعالة من أجل تعزيز مشهد الاستعراب داخل إفريقيا واستغلال التعددية اللغوية المحلية لصالح الإثراء الإبداعي والثقافي من أجل نهضة إفريقية تنموية تعيد للعربية رمزيتها التاريخية بشكل يطمح لأن تكتسب منزلة رفيعة سامية كدلالة اسمها مما يجعلها تتخطى مزاحمة اللغات الأوروبية لها وتتجاوز التعصب العرقي.

ولكسب الرهان، ينبغي العمل الجاد من أجل إنجاح هذا المشروع عن طريق نهج سياسة واضحة المعالم تعزز مشهد اللغة العربية وتحث على الاهتمام بالبحث العلمي عن طريق تبادل الخبرات في هذا المجال وتعزيز الروابط بين الجامعات الإفريقية والجامعات العربية وتشجيع البحث العلمي في هذا المجال.

إن اللغة العربية ومشروع الترجمة يراهنان على قابلية تكثيف الجهود والأبحاث في دول أفريقيا جنوب الصحراء من أجل إقرار عولمة اللغة العربية دون انزلاق نحو الغرب أو تقوقع يبطئ عملية النهضة والتنمية الإفريقية.

المراجع:

1. أدونيس، الثابت والمتحول، الجزء الرابع، بحث في الابداع والاتباع عند العرب، بيروت، 1973.
2. أدونيس، فضاء لغبار الطلع، دار النشر الصدى، 2010.
3. جابر عصفور:" الرحلة إلى الآخر في القرن التاسع عشر"، في الغرب بعيون عربية / ونحو ثقافة مغايرة، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، يناير، 2008.
4. عياد بومرزاق، إشكاليات المصطلح وتعطل النظرية النقدية، كتابات أدونيس وجابر عصفور نموذجا، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، مارس 2022.
5. سعيد بن ناصر الغامدي، المرجعية في المفهوم والمآلات، مركز صناعة الفكر للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، 2015.
6. في ترجمة الثقافي: مقاربات وتطبيقات، منشورات مختبر المجتمع والخطاب وتكامل المعارف المنتمي إلى الكلية المتعددة التخصصات بالناظور ومختبر اللغة والأدب والتواصل المنتمي إلى الكلية المتعددة التخصصات بتازة، الطبعة الأولى،2018.